الحصى تترك أثراً على الجلد

قصة قصيرة

لطالما كانت الأطعمة التي لا ذوق لها هي الأعز إلى قلبي ، اللبن المجمد الطبيعي ، الأفوكادو ، حبة البطيخ المرة التي تجعل رب الأسرة يسب صاحب الدكان الذي إشتراها منه ، وحتى الماء البارد والعصائر منخفضة التركيز . بدون أن ننسى السمك فقد كان من دون أدنى شك من وجباتي المفضلة . لقد كانت لأمي عادة غريبة بأن تدخل السمك إلى البراد بعد قليه مباشرة لبضع ساعات فيفقد قرمشته و يغدوا طريا لزجا دافعا بعصارته المالحة إلى أطراف الصحن . الأمر الذي كان يستهويني جدا . " لا بأس في أكل الأسماك لأنها لا تملك أية مشاعر"، لطالما رددت كلمات تلك الأغنية شاكرة أمي على مراعاتها لتفضيلات إبنتها الغريبة .

إستيقظت اليوم وأنا غارقة في عرقي وشعري ملتصق بجبهتي . لسبب أجهله ، شعرت بالألم في كل شبر من جسدي . ألم طفيف ، كأنني مارست التمارين القلبية بالأمس . مما جعل النهوض من الفراش مهمة صعبة قليلا . أشار المنبه إلى 5:37 وهو الوقت الذي أستيقظ فيه عادة ، علي أن أصرخ بجمل تحفيزية مبتذلة أو ألكم دمية " sailor moon " حتى أحفز نفسي للقيام بأبسط مهام النظافة الشخصية ، كغسل أسناني . علي أن أحرك يمناي ذهابا وإيابا وأن أصنع وجوها طريفة حتى أحرص على إتمام عملية تنظيف الأسنان على أكمل وجه . " تمت المهمة بنجاح " تماما كما كان يقول أبي .

أفتح المرآة على مصرعيها التي هي في الأصل خزانة للأدوية لأحضر علبة الفيتامين ج ، ثم أعيد إغلاقها ليتجلى وجهي الهزيل من جديد في المرآة . ألربما إن إستمعت إلى نصيحة أمي و أطلت شعري فأصبح جميلة مثل من هن في نفس سني ؟ هل أنا فعلا أحب مظهر الشعر القصير الصبياني ؟ أم أنني مجرد فتاة عنيدة متمردة كما تقول أمي ؟ أخبرتني أمي ذات مرة أنني أشبه الصبيان الذين يبيعون الجرائد في الحرب العالمية ، النكتة السمجة التي جعلت والدي ينفجر ضحكا .

أخدت حماما دافئا ، وقررت إعداد القهوة ريثما أختار ما أرتديه من الثياب . وكالعادة تذوقت القليل من البن المطحون قبل أن أعيد ملئ الملعقة ومن ثم حقنها في ماكينة الإسبريسو . وضعت سماعاتي وشغلت أغنية عشوائية من هاتفي . إنها "oh darling" للبيتلز . أحب هذه الأغنية ، ربما هي ثالث أغنية أفضلها في "abbey road" بعد "something" وأغنية رينغو عن الأخطبوط . أداء بول الصوتي لا يفشل أبدا في وضعي مزاج جيد لتأتي الطبول وتعطي طابعا إحتفاليا للأغنية . اليوم إخترت إرتداء قميص قطني أبيض فيه صورة كاريكاتورية لقط يبكي وسروال شينو حليبي وخفي "vans" جعلا قدماي يبدوان كرقعة شطرنج . حليت قهوتي بالبيبسي بدل السكر وإستمتعت بها مع بعض البراونيز في شرفتي .

ذهب أبي إلى إيران في رحلة عمل ، فهو يعمل كمصور فوتوغرافي و يصورالأفلام الوثائقية والإشهارات عادة . ولن يعود إلا بعد شهر . أما أمي فهي في تيزي وزو لتساعد أختها المريضة . ولهذا

ولأسبوع على الأقل فالبيت لي وحدي . في الجانب المقابل للشرفة ينتصب بيت جارنا التونسي الخلاب . تحفة معمارية بحق ، تسعة أمتار من الرخام الأبيض مع سطح هرمي من القرميد الأجوري ونوافذ على الطراز الفارسي تبلطها حجارة بيضاء قد نالت منها بعض الطحالب . كما أن الرخام بدأ يتشقق بشكل يسير تتعسر ملاحظته . لمحت في إحدى عتبات النوافذ قطة مشمشية تأخذ قيلولة وقد بدى على محياها الرضى ، حاولت مناداتها لكن من دون جدوى . أخبرني أبي أن جارنا التونسي إنتقل إلى هذا المكان قبل 9 سنوات وبنى هذا القصر بنفسه ، ولا بد من أنه كان فاحش الثراء وكانت له شركات وأعمال في دولة غربية أو ما شابه فقرر القدوم إلى وهران للإستمتاع بتقاعده . الأمر الذي حيرني ففي العادة يكون الأمر معكوسا . فيكد سكان العالم الثالث في دولتهم ليستمتعوا لما تبقى من عمرهم في أوروبا والولايات المتحدة .

الجو اليوم لطيف والسماء صافية . أشعر بالدفئ يغمر جسدي لكن ، ولسبب ما ، ما زالت روحي باردة ، أسعى لتقصي سبب الخواء الذي بداخلي لكن دون جدوى . كعجوز مبحر دون هدى في ليلة ظلماء عاصف . آمل أن يغير حدث أو شخص رتابة وسطحية الحياة البغيضة التي أعيشها . يجب أن أفعل شيئا بخصوص الأمر عوض التمني . " ليس كل ما يتمناه المرء يدركه " . لا أدري من قال هذا حتى . لكنني فتاة كسولة جدا ومشاكلي ليست جديرة بالفناء .

الفكرة الشائعة المرضية للكل بأن الجميع السعادة لم تقنعني أبدا . أو بلالأحرى فلم أفهم معناها . أفليست إستحقاقيتك لشيء تخولك بالتصرف في حال عدم الحصول عليه ؟ لا يمكنك معاقبة الحياة إذا هم بك ما يحزن ماديا كان أو لم يكن .كولي عهد خائر القوى إن إستولى شخص على عرش أبيه فلن يحرك ساكنا . أفلا يجب أن تكون السعادة فضلا يغذق علينا مبتهجين كالأطفال وقتما حصلنا عليه ؟ وأليست ندرة اللحظات التي نحس فيها بالسعادة الحقيقية تجعل هذه الأخيرة أكثر قيمة ؟ هل يجب أن نربط سعادتنا بما هو متوقع ومرجح الحصول لنضمن الحصول على جرعات شهرية منها ؟ لماذا لست سعيدة ؟ لماذا لست سعيدة ؟ لماذا لست سعيدة ؟

ودعت القطة المشمشية التي ماتزال في قيلولتها وأخذت حقيبتي المدرسية التي وضبتها بالأمس . إنه وقت الذهاب إلى الثانوية .

إنتظرت الحافلة لدقيقتين ثم إخترت الجلوس في المقعد الرابع بجانب النافذة واضعة حقيبتي في حضني ، لم يكن في الحافلة سوى ثلاثة أشخاص أنا رابعتهم . أحدهم مألوف لي ، هي عجوز إعتادت على الإنغماس في النوم وتفويت محطتها . السماء رمادية والشمس باردة نوعا ما . الشوارع نظيفة هنا في حي كوبا لكن المنظر سيتغير ما إن نصل إلى وسط المدينة حيث أدرس . عادة ما تشعرني أجواء الحافلة الهادئة ومناظر المدينة البسيطة بالسلام الداخلي لكن على غير العادة أشعر بالملل .

لا أحس بأحشائي وبأعضائي الحيوية ، ربما أنا جائعة ؟ سألتني إمرأة عن الوقت فأجبتها تلقائيا ب :
__ "لا أدري".
رغم أنني أحمل هاتفي وأرتدي ساعة يد لاحظتها المرأة بوضوح ولهذا سألتني في المقام الأول . لا أدري لم فعلت ذلك ، بالتأكيد لم أقصد أن أكون فظة . ربما لأنني جائعة .

وصلنا إلى منتصف المدينة ومازال علي المشي قليلا للوصول للثانوية . أحب هذه الطريق المزينة بالشجيرات رغم أنها ليست نظيفة تماما . تصطف الشجيرات على الرصيف كمجموعة من الجنود القصار البُدّن في إستعراض عسكري . هناك زجاجات جعة بنفس لون أوراق الشجيرات في الطريق و الرصيف ، الناس يشربون للنسيان . يوجد أعقاب سجائر أيضا ، الرجال يدخنون لأنهم يحبون طعم التبغ ببساطة . توجد علب لبن مجمد فارغة وقطط جميلة ، وقطط مشوهة قبيحة ، بصاق وعلكة ، جرائد بالفرنسية وكؤوس قهوة بلاستيكية نصف ممتلئة . تمر سيارة بجانبي ، فأنا في الرصيف ، يجب على الناس المشي على الرصيف . أردت النظر إلى السائق لكنني ترددت وفاتت اللحظة . أظن أن مقعده مرتفع كثيرا لكي يرى القاذورات التي كست هذا الشارع .

إذا كنت القاذورات فمعظم الأشخاص في حياتي كالسائق . بعيدون وباردون ، يفصلنا برطمان زجاجي ملمسه بارد . البرطمان مصنوع من الزجاج السميك وهو غائم إذ لا يسمح لك بإستبيان ما يحويه . أنا خارج البرطمان ، من هم بالخارج هم الأكثر رغبة في معرفة ما هو بالداخل وليس العكس . من هم بالداخل أكثر قيمة ولهذا حبسوا في برطمان لكي لا يفسدوا . يمكنني فتح البرطمان بسهولة لكنني أتجاهل هذا الخيار وأقنع نفسي أن السبيل الوحيد لفتحه هو بكسر الزجاج . لكنني أضعف من ذلك والشظايا ترعبني ، فيبقى البرطمان مغلقا .

في القسم وضعت رأسي على الطاولة ريثما يأتي الأستاذ . أردت لوهلة أن أبدي إنزعاجي من الضجيج وأنا نائمة لكن لا حق لي فأنا الدخيلة بلا أصدقاء ولا نشاط في الصباح . الفتاة الوحيدة التي أعرفها في القسم والتي حتى في بعض الأحيان أعتبرها صديقتي تدعى مريم وهي تجلس أمامي . لم تأتي حتى الآن ، وإذا كل ما لدي هو صورة ضبابية عن مظهر شعرها المجعد الطويل من الخلف . عرفت أن الأستاذ قد دخل بعد أن توقف الضجيج ودخلت مريم وراءه مباشرة .

_ "صباح الخير" حييتها مبتسمة .

_ " السلام عليكم حواء ".

_ " وعليكم السلام" .

جلست ثم أمالت رأسها للخلف لتخبرني بأن أنظر إلى شعر صدر الأستاذ ، ففعلت وضحكنا .

حدقت من النافذة إلى شجرة الصفصاف وسط الساحة التي أجلس عندها دائما . وشرد ذهني لبضعة دقائق حتى قاطعني الأستاذ قائلا :

_ "حواء".

_" نعم "؟

_" لماذا لم تحضري آخر مرة ؟ الإثنين" .

_ "لقد كنت مريضة".

_ "لقد أعلمتكم من قبل بأننا سنجري إختبارا يوم الإثنين ، وقد فعلنا بالفعل. إن أردت أن لك بإجتياز الإختبار فعليك بإحضار تبرير لغيابك من إدارة المدرسة".

_ " حسنا".

في الإستراحة جلست عند شجرة الصفصاف مع مريم وشربنا عصير التفاح من علب بلاستيكية، وبدأت مريم تثرثر عن طول الشبان الذين يمرون أمامنا، وكم السماء باردة اليوم مهما يعني هذا . ومن ثم تذكرت أن علي أن أذهب إلى الإدارة لأحضر تبرير الغياب وقد وددت أن أسأل مريم بأن تذهب معي لكن خجلي حال دون ذلك .

_"أراك لاحقاً مريم علي الذهاب" .

_"إلى أين" ؟

_"الإدارة".

_"هل تودين الرفقة" ؟

_"لا" قلت رغم أنني وددتها .

وصلت إلى الإدارة أو "الإ ارة" لأن اللافتة فوق الباب قديمة جداً وقد تآكلت على ما يبدوا ، وقفت أمام الباب لهنيهة مفكرة في ما يجب علي قوله فليس لدي تبرير طبي ولا أولياء أمور وعلى الأرجح سيتم طردي وحاولت تخيل كل السيناريوهات الممكن حصولها حيث تكون المسؤولة في الإدارة بدرجات لطافة مختلفة . هناك سيناريو أين تصفعني وتناديني بالعاهرة وتطردني وأنا أبكي خلال كل هذا لكن إحتمال حصولها ضئيل، ومع هذا لم أستطع إستجماع رباطة جأشي والدخول فعدت إلى مريم والشجرة .

بعد نهاية الدروس رافقت مريم إلى محطة الحافلات لكنني لم أركب معها، أنا جائعة ومتعبة جداً للعودة للمنزل والطبخ لذا سأتجول قليلاً ريثما وجدت مطعماً لأستريح فيه.

مشيت ومشيت حتى تورمت قدماي وكاد خفي لا يسعني وإنتهى بي المطاف في طريق ترابي بجانب حقل كبير وعلى يميني شارع به بعض الأبنية المهترئة التي تحتاج دهناً . هل أنا في وهران حتى ؟ لا بد من أنه مكان بعيد لم أزره من قبل لكن حتما ما زلت في نفس الولاية فقبل نصف ساعة فقط كنت في منتصف المدينة .

تعبت من ملاحظة ما هو حولي وركزت بخطوات متثاقلة على رقعة الشطرنج ، الشطرنج لعبة للأذكياء ، أنا جائعة ، لم أحصل على تبرير ولن أستطيع إجتياز الإختبار . لمحت أن هناك سكة حديد على بعد 200 متر في الحقل الذي بجانبي فهرولت إليه مسرعة دون معرفة ما أصابني ، إنها تجذبني كالمغناطيس وحشرات الزيز تتكسر تحت أقدامي بينما أتعرق وأشعر بحاجة ماسة للتبول .

الهدف من جذب سكة الحديد لي هو أنها ترغب في أن أعبرها، وهذا ما سأفعله ، أنزع خفي بعناية . قدم على الحديد البارد كأن كلباً لعق قدمي وقدم على الأرضية المبلطة بالحصى التي أغذقت عليها اليوم من جلد باطن قدمي الميت . شعرت بالحصى يرقص قليلاً فقررت أن أقرفص ، وضعت رأسي على فخدي وضممت قدمي إلى قفاي ، زادت وتيرة إهتزاز الحصى وعلمت أن قطاراً قادماً سيسوي بي الأرض إن لم أبتعد لكن الأمر ليس بيدي . أنا أقسم ، وأريد من الجميع تصديقي . قوة جذب السكك الحديدية شيء حقيقي ! بكيت لأنني لا أود الموت بينما علت في مسامعي أصوات مزعجة أغلبها من القطار وبللت سروالي من شدة الخوف حتى تحول لون السروال الحليبي إلى بني قاتم مثل بذلة رسمية لممثل نسيت إسمه في فيلم نسيت إسمه . نهضت وإبتعدت عن السكة الحديدية ونزعت سروالي ونظرت إلى القطار الذي تبقى له 30 ثانية على الأرجح ليصل إلى المكان الذي كنت جالسة فيه . وأدركت لهنيهة، لقد نجوت ! سأعود إلى محطة الحافلات وأقبل مريم . لكن ، مهلاً لا أستطيع التجول هكذا في ملابسي التحتية فقد يحسبني العامة بائعة هوى أو يغتصبني أحد ما . لذا وهذه المرة دون قوة جذب السكة الحديدية عدت إلى مكاني وجلست وصوت القطار الذي بات أقرب من أي وقت مضى يصم أذني

. ودخلت الحصى في سروالي الداخلي وجرحت فخدي ومؤخرتي وبظري . الحصى تترك أثراً على الجلد .